الطريق

همدان دماج

كم كان يشعر بسعادة ونشوة غريبة كلما استنشق بعمق رائحة الكراسي الجلدية لسيارته الجديدة! كم أحب هذه السيارة، بلونها الرصاصي وهيكلها الأنيق! فهي الأولى التي يقتنيها منذ تسلَّم منصبه الجديد.

كانت السيارة تتهادى بانسياب لطيف عبر منعطفات الطريق الجبلية الخطرة والمبتلة بقطرات مطر صيفي خاطف. ضوء السيارة يرسم خطين متوازيين يخترقان ليل الجبل الموحش. كان قلقاً ومتوتراً، ولم تكن منادمات أصدقائه الذين رافقوه هذه الرحلة الليلية الطارئة قادرة على انتشاله من حالة الوجوم والقلق التي علت وجهه. لقد بات ظاهراً للجميع، منذ تلك اللحظة التي قطع فيها سهرته، أن الأمر خطير. ورغم أنهم قد

قرروا جميعاً أن يرافقوه، فإنهم لم ينسوا أخذ المشروبات الروحية معهم، مستلزمات "السهرة" التي لم يكن قد مضى عليها وقت طويل، علهم أن يكملوها في السيارة.

لقد أجهد نفسه أن يبدو هادئاً، لكن القلق كان واضحاً من قبضة إصبعيه النحيلتين على عنق سيجارته ذات التبغ المخفف؛ فكفوا عن طرح مزيد من الاستفسارات، وتكوموا على المقاعد الخلفية ولزموا الصمت. كانت أفكار شتى وهواجس تدور في مخيلته، وكان ذهنه شارداً، وأسئلة تلح عليه وتبعده أميالاً طويلة عن أصدقائه المكتظين في الخلف، الذين حاولوا قدر الإمكان جلبه إلى "مناخ النشوة" التي تعتريهم والتي كان محروماً منها هو وسائقه العجوز الذي ظل يدخن بقوة ممسكاً بعجلة القيادة بكل فخر واهتمام، فهو يحب هذه السيارة أكثر من أي شخص آخر.

* * *

لم يخبروه عبر الهاتف بالتفاصيل، كالعادة. كانت الأوامر جازمة، يشوبها قلق مبهم، فلم يكن بوسعه أن يسأل أو حتى أن يتبادل المجاملات المعتادة. فمنذ أن أعلنت الحكومة حالة الطوارئ، توقف عن استخدام الهاتف "في تدبير أمور العمل". هكذا قالوا له، رغم أنهم ما كانوا بحاجة لتوصيته فالوضع يقلق الجميع، حتى بائعي الأطعمة المتجولين بعرباتهم الصدئة كفوا عن الظهور في شوارع المدينة المضطربة.

لقد عمت الفوضى أرجاء البلاد، وزادت حوادث الاغتيالات والتراشقات النارية في الشوارع في الفترة الأخيرة. كان قد سمع منذ أيام من صديق قريب وموثوق التقاه في القيادة العسكرية العامة أن رائحة فتيل الحرب تملأ وجوه القادة في الغرف العسكرية بالوجوم والتهيب، كما تملأ صدور الجنود في المعسكرات الأمامية بالتحفز والرعب "من موت مفاجئ". كان الجميع يتوقع نشوب الحرب في أي وقت، ولم تعد المسألة سوى: من سيطلق الرصاص أولاً؟ فالناس كانوا قد بدأوا في شراء السلع وتكديسها في المخازن، خاصة بعد أن زاد عدد الفارين

من جنود الاحتياط والمجندين الإلـزاميين الـذين تسـلقوا أسـوار المعسكرات العالية، وفرَّوا إلى قـراهم ومسـاكنهم منـذ أسـابيع واختفوا عن الأنظار.

* * *

كانت السيارة لاتزال تنساب بلطف عبر المنعطفات بمحركها الجديد الذي كان يصدر صوتاً متناغماً ووحيداً في عتمة الليل البارد. كان المطر قد توقف، ففتح السائق زجاج النافذة، التي اضطر مكرهاً أن يغلقها أثناء تساقط المطر، منسجماً لصوت محرك السيارة الجديد، ودخلت رياح باردة منعشة، ففتح الجميع النوافذ، وارتفع صوت احتكاك إطارات السيارة بالطريق المبتل، ليكسر حاجز الصمت الذي كان قد خيم حتى على الراكبين في المقاعد الخلفية.

* * *

أخذه الحنين فجأة إلى الماضي الدافئ، إلى تلك المربعات الترابية الجافة التي اختبأت من زخات المطر تحت هياكل السيارات الواقفة في شارعه الترابي القديم المفضي إلى ساحة الجامع التي تكتظ بجموع المصلين الزاعقين به وبزملائه أن يغادروا الساحة. كانت الساحة تعتبر المتنفس الوحيد لأبناء الحارة السكنية بمختلف أعمارهم، وتتحول في أيام العطل الدراسية إلى حديقة ألعاب عامة يزاولون فيها كل النشاطات الصيفية، من إحراق إطارات السيارات المسروقة ليلاً إلى الشجار والاقتتال في مراهنات كرة القدم السرية.

* * *

أطبق الصمت على الجميع داخل السيارة. السائق العجوز منحنٍ إلى الأمام متيقظ لمنعطفات المرتفع الخطر التي يعرفها جيداً، تتدلى يده اليسرى خارج النافذة بينما تقبض الأخرى على

المقود بقوة. كان الركاب في المقاعد الخلفية متجهمي الوجوه، وقد تملكهم قلق بدأ يتنامى شيئاً فشيئاً بداخلهم حتى صار رعباً ضاقت منه صدورهم المحشوة في المقصورة. كانوا يتمنون لو أنهم أوقفوا السيارة وخرجوا راكضين إلى الخلف، إلى أي مكان آخر، لكن لم يجرؤ أي منهم على فعل ذلك، كانوا قد استسلموا لهاجس غريب يترقبون بقلق مرور لحظات هذه الرحلة التي بدت وكأنها قد طالت لأعوام كثيرة. "سينتهي كل شيء على ما يرام، لا داعي لمثل هذا القلق". عبثاً كانوا يطمئنون أنفسهم، بل إنهم كانوا يزدادون توتراً كلما حاولوا تبرير خوفهم المتصاعد.

* * *

عرفوه منذ خمس سنوات، عندما كانوا لا يزالون ينفذون عمليات تهريب صغيرة من الميناء إلى العاصمة في بداياتهم الأولى. ومنذ تلك الليلة التي قضوها في الحجز المؤقت صاروا أصدقاء لا

يفترقون أبداً. كانوا جميعاً شباباً ينضحون حيوية. لكنه كان أكثرهم توقداً ومجازفة، رغم خبرته القصيرة في "أمور العمل". لقد أحبوه كثيراً، فقد كان ودوداً في حديثه، بسيطاً، ذا ابتسامة طفولية محببة. إلا أن أكثر ما جعلهم يلتفون حوله باحترام هو ذلك الطموح الذي يجتاز بمسافات كبيرة طموحاتهم التي كانوا يحلمون بها. "إلى أين سيأخذنا هذه المرة؟!"، سألوا أنفسهم وهم يرقبون رأسه من الخلف ثابتاً لا يتحرك. حاولوا مرة أخرى أن يعيدوا جو البهجة، فبدأوا يتسابقون على قراءة محتويات اللوحات المعدنية لأسماء القرى والمدن التي يجتازونها، بصوت عالٍ، تماماً كما كانوا يفعلون في رحلاتهم المدرسية منذ زمن بعيد؛ لكنهم سرعان ما عادوا للصمت من جديد، فالطريق الآن لم تعد بالنسبة لهم سوى ثعبان اسفلتي يتلوى ويسير نحو الهاوية.

* * *

استمرت السيارة بصعود المنحدر الجبلي. وبدأ ضوء سيارات قادمة من الاتجاه المعاكس ينعكس بقوة على وجوه الراكبين، وعلى عيني السائق الذي لم يعد قادراً على رؤية الطريق بوضوح، فبدأ بإرسال إشارات ضوئية من كشاف السيارة علهم يخفتون هذه الأنوار المبهرة، لكن الضوء المنبعث من السيارات القادمة كان يكبر شيئاً فشيئاً، حتى أحرق قزحية السائق العجوز. وقبل أن يفقد تحكمه بالمقود، وقبيل أن تتقاطع السيارات على الممر الضيق، كانت طلقات نارية قد دوت في أرجاء المكان ملأت قلبه فزعاً، ومالت السيارة بعنف عن الطريق، وأحس، في زحمة الصور المتكسرة في مخيلته الهلعة، بشيء يخترق صدره، قبل أن يفقد وعيه تماماً.

* * *

أجهد جفنيه الذابلين، وجال ببصره كل الأرجاء. كان الظلام حالكاً ورذاذ مطر بارد يتساقط على جمجمته المهشمة، وكانت رائحة البنزين المحترق تخنقه وتملأ أنفه المزكوم برائحة مزعجة. تحسس جسده النازف، وبدأ يبحث بعينيه عن الإجابة، فاصطدمت مقلتاه بأجساد أصدقائه الممزقة بعد أن قذفت بها السيارة وتناثرت بعشوائية على جوانب المنحدر السحيق. وتراءى له من بعيد في الأسفل جسم معدني يعكس أضواء قمرية بعيدة. **"لا بد وأنه هناك!"**، فكر بسائقه العجوز الذي آثرت جثته الممزقة ترك السيارة. حاول النهوض فأدرك أنه عاجز تماماً عن الحراك، وأن مفاصله لم تعد مترابطة إلا بخيوط واهنة قد تنقطع في أية لحظة. نظر إلى الأعلى فبدت قمة الجبل بعيدة موحشة، وبدأ الظلام يكبر شيئاً فشيئاً داخل عينيه. وتأمل سيارته وهيكلها الرابض في الأسفل مرة أخرى وانهمرت دموعه بغزارة وأجهش باكياً كطفل صغير أضاع أمه في سوق

شـعبي غريـب، ورددت منحـدرات الجبـل الشـاهق بكـاءه المـرّ وأنفاسه الهاجعة التي بدأت تذوي وتضمحل ثـم تلاشـت مـع أول خيط من خيوط شمس يوم جديد.

صيف 1997